هجرة مجازية إلى عالم آخر

الكاتب اللبناني جاد الحاج يكتب بالإنجليزية عن المنفى الأسترالي

سمير اليوسف

ليس من المستغرب ان يختار الشاعر والقاص اللبناني جاد الحاج «الهجرة الأخيرة» عنواناً لروايته الصادرة حديثاً في أستراليا عن دار «بناشيه». فلقد أقام الحاج نفسه في المهجر قرابة عقدين من الزمن، بل وتنقل ما بين بلدان هجرة مختلفة: أستراليا، فرنسا، اليونان، بريطانيا. ولئن أقام اليوم في بيروت، وبغرض العمل على الأرجح، فإن إقامته هذه ليست بعودة نهائية الى الوطن بقدر ما هي إقامة مهجرية أخرى شبيهة بإقاماته المؤقتة الأخرى. ولعل كتابته هذه الرواية باللغة الإنكليزية، وبعد خبرة كتابة باللغة العربية مديدة، دلالة على ان حالة الهجرة التي عاشها إنما أمست دائمة وطويلة، حتى وإن بدت طوعية الدافع الآن. وربما لهذا السبب بالتحديد فإن الرواية، ورغم عنوانها الصريح الدلالة، ليست عن الهجرة بالمعنى المتواضع عليه، اي بمعنى سرد المصاعب الملازمة لخبرة الحياة بعيداً عن أرض الوطن.

وبطل الرواية، أشرف، لهو أبعد ما يكون عن صورة المهاجر الذي يعيش اسير الإحساس بالاقتلاع والحنين الى الموطن الأصلي. فمن خلال سلوكه و لغته فإنه يبدو على انسجام تام في المكان الذي يقيم فيه او يتردد عليه، سواء كان ذلك منطقة إقامته في لندن، حيث يعيش بين ناس تربطه بهم اواصر الجوار والصداقة، ام كانت أستراليا نفسها، موطن هجرته الأولى ومقام ابنتيه الدائم. ففي رحيله الى استراليا، بغرض زيارة عائلته، يبدو وكأنه عائد الى موطنه الأصلي.

وخلافاً للمهاجر، فليس ثمة من صعوبة تعترض تنقل أشرف من بلد الى آخر، فهو مواطن أسترالي، فضلاً على ان عمله، كصحافي يغطي احتفالات فنية، يوفر له إمكانيات السفر. وطبيعة إقامته وتنقله ما بين بلدان، بل قارات، مختلفة ليست وحدها ما يبيّن أن أشرف ليس بالمهاجر الذي يكابد مشاق العيش في بلاد غريبة، وإنما تأقلمه مع ثقافة المهجر وتبنيه لقيمها. وهناك درجة من الإلفة والسلاسة في تعامله مع ابناء بلاد المهجر الأصليين، خاصة النساء منهم، ما يدل على ان التصورات الثقافية المُسبقة لا تتحكم بمواقفه وسلوكه إزاءهن.

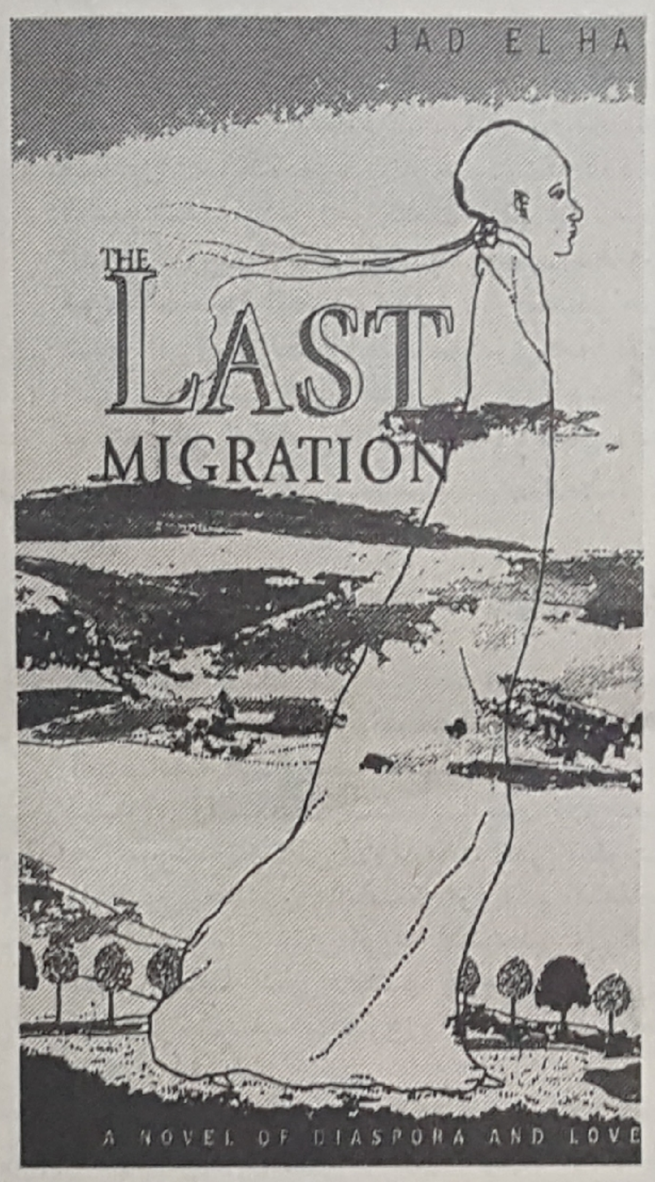

غلاف الرواية

صحيح ان قصص بعض علاقاته العاطفية تبدو قريبة الشبه من حكاية المغامرات الشائعة للرجل الشرقي في بلد غربي، لكن موقفه الليبرالي من عائلته، زوجته السابقة وابنتيه، يدل على ان الرجل قد تخلص فعلياً من عبء القيم الشرقية الصارمة. فحينما تهجره زوجته، ماضية في أثر فرق دينية وروحانية، فإنه لا يحاول ان يمارس سلطة «الزوج الشرقي» المعهودة. انما تجده يتخلى لها عن كل شيء نظير وعد بألاّ تحاول استمالة ابنتيهما نحو نمط حياتها الغريب الجديد. وهو لئن أبدى حرصاً شديداً تجاه الابنتين فإنه لا يمانع مخالطتهما للذكور وإقامة صداقات تعتبر طبيعية في وسط غربي، وإن ليس كذلك في موطنه الأصلي. بل ان الوسط العربي الذي يخالطه أشرف في المهجر يبدو وكأنه تجاوز مشكلة التفاوت في القيم، خاصة في ما يتعلق بالعلاقة ما بين الجنسين. وهذا ليس بالامر الشائع طالما ان التفاوت المعني ما انفك يثير مشكلات عديدة في الأوساط المهاجرة الآسيوية والعربية، ما بينها وبين محيطها، وايضاً ما بين أفرادها من الأجيال السابقة والشابة.

«الهجرة الاخيرة» ليست، إذاً، قصة الهجرة بالمعنى الحرفي والمتواضع، وإنما بالمعنى المجازي - الهجرة بما هي انتقال الى العالم الآخر، الى الموت الذي يخطف كلير، حبيبة أشرف، وعلى صورة مأساوية، والموت الذي يحصد حياة العشرات في بلدة قانا (جنوب لبنان)، بل والموت الذي يتهدد حياة أشرف على صورة مرض خبيث يصيب كتفه.

ومنذ البداية تضعنا الرواية على مشارف هذه الهجرة المجازية، حيث جنازة كلير والأسى الملازم، مطبقاً على نفس بطل القصة. وعلى رغم غناء الرواية بحوادث عديدة، الاّ انها تبدو أشبه بمحاولة للتعامل مع حقيقة هذا الموت وما يولده من إحساس بالفقد والألم، محاولة للنسيان مرة، وللقبول والإذعان مرة ثانية. بيد ان عمق العاطفة التي تربط اشرف بحبيبته الفقيدة تحول دون نجاح مثل السعي. فهو إذ يعود، اولاً، الى استراليا ملتمساً دفء الحياة العائلية كسبيل لمجابهة برودة الموت والحداد، الا انه سرعان ما يكتشف بطلان هذه المحاولة، فينهار في احدى اللحظات الدرامية تحت وقع الذكرى الحية. ويعود، ثانية، الى لندن موطناً الأمل على الانغماس في علاقة عاطفية جديدة، بيد ان تماديه في الأمل، وهو ما يتضح من خلال اهتمامه المبالغ به في «جيني»، صديقته الجديدة، يؤدي الى إحباط رغبته. فهو إنما يحاول ان يتخذ من جيني بديلاً للحبيبة الميتة، ومحض موضوع لعاطفة لم تنضب بعد. فمصدر العاطفة الفعلية انما هي تلك المرأة التي ما انفكت صورتها تلازمه وربما تجعله يوقن بألا سبيل للاستعاضة عن شخص بآخر. وعلى رغم ان صورة كلير تختفي من بعض فصول الرواية، خاصة خلال علاقته بجيني، الاّ انها تكون ملازمة للراوي وإن ليس على وجه ظاهر. ولعل الاستشهاد الذي يتقدم مطلع كل فصل، هو استشهاد مأخوذ من دفتر ملاحظات كلير، لهي محاولة من الكاتب لكي يشدّد على حضور كلير، والأسى النابع عن فقدانها، في نفس البطل حتى حينما تختفي من حوادث القصة.

وفي النهاية فإن أشرف لا يتغلب على هذا الحضور الا من خلال مواجهته لتهديد الموت هو نفسه، وكأنه في تعميم حضور الموت يقلص من حجم أساه على الحبيبة الميتة. فوالدته تكاد ان تكون بين ضحايا القصف الإسرائيلي لبلدة قانا، وما أسفر عنه من خسائر في الأرواح، بما يجعل ظل الموت مسيطراً على بلده وموطنه الأصلي. بل ويكتشف ان جسده هو نفسه ليس بمنأى من تهديد الموت، وعلى صورة شبه مأساوية كما جرى لكلير. وإذا ما كان عموم الموت هو السبيل الذي يؤدي الى التغلب على الأسى الخاص والشخصي، فإن الشفاء من الأسى انما يحصل عند إدراكه بأنه على وشك استقبال حياة جديدة، الطفل المنتظر ثمرة العاطفة العابرة بصديقته آنا. بل ان هذا الشفاء ليبدو النهاية المتوقعة منذ البداية لرواية «الهجرة الأخيرة»، إذ على رغم الأسى الذي يسيطر على بطلها الاّ ان ثمة نزوعاً الى اللهو والفكاهة في شخصيته تجعله مؤهلاً للشفاء، وكما لو ان الأسى لم يكن سوى حالة مفتعلة.